قرامطة البحرين

من قطع طريق الحج إلى اقتلاع الحجر الأسود

إعداد

د. فايزة بنت محمد الكلاس

بحث مقدم إلى ندوة

مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ

يكتنف موضوع ظهور القرامطة بعض الغموض فهناك خلاف شديد حول أصلهم ومدى علاقة هذا الأصل بالحركة الإسماعيلية عقيدة وتنظيماً ، فقد ذهب جل الباحثين في عصرنا إلى القول أن القرامطة جزء من الإسماعيلية وأن هناك علاقة عقائدية وعضوية بين الطرفين ، بينما ذهب قلة من الباحثين إلى نفي هذا الرأي والقول أن القرامطة تنظيم قائم بذاته ، مستقل كل الاستقلال عن الإسماعيلية[(١)] . ولدى العودة إلى مختلف المصادر الإسماعيلية نراها تنظر إلى القرامطة نظرة فئة تمردت على قيادتها وهذا ما نشهده في كل من كتاب (سيرة الحاجب جعفر) و (استتار الإمام).

ومن الكتب التي تؤيد بأن القرامطة فرع من الإسماعيلية كتاب (المقالات والفرق) لسعد القمي ، وكتاب (شجرة اليقين) للداعي القرمطي عبدان، ويعد سعد القمي بين أقدم من كتب في الملل والنحل ، فقد عاصر ظهور القرامطة ورأي نشاطاتهم الحربية المعلنة ، وذلك أنه توفي في أواخر القرن الثالث للهجرة. قال سعد القمي : وتشعبت بعد ذلك فرقة .. ممن قال بإمامة محمد بن إسماعيل تسمى القرامطة ، سميت بذلك لرئيس كان لهم من أهل السود من الأنباط ، وكان يلقب بقرموطيه ...وقد كثر عدد هؤلاء القرامطة ، ولم يكن لهم شوكة ولا قوة ، وكان كلهم بسواد الكوفة وكثروا بعد ذلك باليمن ونواحي البحرين واليمامة وما والاهما ، ودخل فيهم كثير من العرب فقوي حالهم بهم وأظهروا أمرهم).[(٢)]

(١) مجلة فرع بومباي للجمعية الملكية البريطانية الآسيوية.

(٢) (Ismailis and Qaramatians J.B.B./A. Vol ١٩٤٠, pp. ٤٢- ٨٥

يستخلص من تلك الدلائل بأن القرامطة فرع من فروع الإسماعيلية لذلك يبدوا بديهياً أنشأتهم مرتبطة بنشأة الإسماعيلية وتطورها ومع ذلك لابد من سؤال حول معنى كلمة قرامطة والمقصود منها ، وحول التاريخ.

الذي ظهرت به كلمة قرامطة والبلد الذي شهد أول تنظيمات القرامطة وتحركاتهم .

تعريف القرامطة :

لقد أكثر الأوائل والمعاصرون البحث في هذه القضية ، لكن عجزوا عن الوصول إلى رأي حاسم حولها ، ومع ذلك سنحاول عرض أهم الآراء والروايات محاولين الوصول إلى نتيجة ما : نقرأ في لسان العرب:

قرمط : القرمطيط المتقارب الخطو ، وقرمط في خطوه إذا قارب ما بين قدميه.. والقرمطة المقاربة بين الشيئين ، ... والقرامطة: جيل واحدهم قرمطي(١).

ونقرأ في بعض كتب الملل والنحل:

قال سعد القمي : (القرامطة : سميت بذلك لرئيس كان لهم من أهل السود من الأنباط كان يلقب بقرطوية) (٢).

وقال الديلمي في بيان مذهب الباطنية وبطلانه : (أما لقبهم بالقرامطة) فلانتسابهم إلى رجل يقال له حمدان قرمط من أهل الكوفة ، وهو أحد

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت المجلد السابع، ص٣٧٧.

(٢) القمي (سعد): المقالات والفرق: طهران ١٩٦٣م، ٨٣- ٨٦..

دعاتهم في الابتداء ، فلما استجاب له ناس سموا قرامطة وقرمطيه)[(١)] .

وكتب الإمام الغزالي في كتابه فضائح الباطنية:

(وأما القرامطة فإنما لقبوا بها نسبة إلى رجل يقال له حمدان قرمط ، كان أحد دعاتهم في الابتداء ، فاستجاب له في دعوته رجالاً من أهل الكوفة مائلاً إلى الزهد)[(٢)] .

وجاء في حوادث سنة ٢٧٨ هـ في تاريخ الطبري : (وفيها وردت الأخبار بحركة قوم يعرفون بالقرامطة بسواد الكوفة ، فكان ابتداء أمرهم قدوم رجل من ناحية خوزستان إلى سواد الكوفة ، ومقامه..يظهر الزهد والتقشف ثم تحدث عن عمله في القرية ودعوته أهلها وإقامته لدى واحد من سكانها (أحمر العينين شديدة حمرتها وكان أهل القرية يسمونه كرميته لحمرة عينيه ، وهي بالنبطية أحمر العينين) ثم تحدث عن ذهاب هذا الداعية إلى الشام وأنه (سمى باسم الرجل الذي كان في منزله .. كرميته ثم خفف فقالوا قرمط)[(٣)] .

لدى العودة إلى هذه المواد يلاحظ : بأن المعاجم اللغوية لا تعطي المعنى اللغوي الدقيق ولا تسعفنا بشيء . ظهر القرامطة للمرة الأولى في سواد الكوفة، وهذا الوسط الذي ظهر فيه القرامطة كان وسطاً فلاحيا لغة أهله

(١) الديلمي (محمد بن الحسن): بيان مذهب الباطنية وبطلانه، استنابول ١٩٣٨م، ص ٢٢.

(٢) الغزالي: (أبو حامد): فضائح الباطنية ، القاهرة، ١٩٦٤م، ص١٢ - ١٥.

(٣) الطبري (محمد بن جرير): تاريخ الرسل والملوك. دار المعرف، القاهرة ج١٠ ، ص٢٣- ٢٥.

النبطية أي الآرامية ، قرمـــط كان لقباً حمله أحد الدعاة واســـمه حمدان (حمدان بن الأشعث).

ونتيجة لهذا يتوجب على الباحث أن يجعل منطقة بحثه وقاعدة انطلاقه الأولى منطقة سواد الكوفة.

الكوفة مدينة تأسست في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيام الفتوحات الكبرى، وهي عاصمة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد تميزت دوماً بطابعها الشيعي وكانت لهذا مركزاً للنشاط الدعوي الشيعي ، لذلك لا غرابة إذا وع اختيار دعاة الإسماعيلية على سوادها وتمركزا فيه دون سواه لحشد الناس ، متذكرين في الوقت نفسه ثورة الزنج ونشاطاتها في سواد البصرة في تلك الأثناء [(١)] بالإضافة إلى أن سكان سواد الكوفة اعتادوا على التنظيمات الدينية خاصة السرية منها ، كما اعتادوا على الأدب الديني المدون سيما الذي حوى علوم الباطن وما تعلق بشخصية المخلص (المهدي) والفداء[(٢)].

ومع اعتماد هذه المعرفة والاستفادة منا يتوجب العودة إلى اللغة الآرامية وهنا يرجح أن كلمة قرمط مشتقة من عبارة (قرم) الآرامية أو السريانية ،

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر. القاهرة، ج٤، ص١٩٥، الطبري: تاريخ الرسل والملوك. القاهرة ج٧، ٥٩٥.

(٢) دراوور (الليدي): الصالبة المندائيون، بغداد ١٩٦٩م.

- زكار: ماني والمانوية – دمشق (١٩٨٥م) ص ١٨- ٣٨.

- زكار: الجامع في أخبار القرامطة، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق (١٩٨٧م) ، ج١، ص ١٢١.

فهي تعني اخفى وغطى وستر وبذلك تقابل كلمة (باطنية) ، وما تزال هذه العبارة تعني في السورية الدارجة (جذر) ويقابلها سريانية معلولا (كرموتيه) ولنتذكر أن القرامطة كانوا منتسبين إلى حزب عقائدي ، ولم شكلوا قط قبيلة ولم ينتسبوا إلى جد أعلى اسمه قرمط انحدروا منه ، ولكن المؤرخ المسلم اعتاد أن ينسب الطوائف والجماعات حسب قواعد علم النسب لا عقائدياً ، فقد غلبت تسمية إسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق –

- على باطنية وتعليمية وسبعية وسواها.(١)

أما فيما يتعلق بتاريخ ظهور هذه التسمية فهو يرتبط ببداية الدعوة في سواد الكوفة ، وأقدم تاريخ قدمه محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله المعروف بالقرمطي بالمدينة هو سنة (إحدى وستين ومائتين) حسبما جاء جاء النديم في الفهرس(٢).

لكن إذا تذكرنا أن النشاط الإسماعيلي قد شهدته مناطق الكوفة قبل مالا يقل عن قرن من هذا التاريخ ، يمكننا أن نتصور أن كلمة قرمطي قد استخدمت منذ تاريخ أبكر من سنة ٢٦١ هـ ، فقد مر في ترجمة عاصم ابن عمر بن حفص بن عاصم الإسناد التالي: (ثنا صاعد ، ثنا محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله المعروف بالقرمطي بالمدينة سنة خمس وأربعين ومائتين)(٣) . بعد التطرق إلى معنى وتاريخ كلمة القرامطة لا بد من الحديث

(١) زكار: الجامع في أخبار القرامطة، ج١، ص ١٢١.

(٢) النديم (أبو الفرج محمد) الفهرس ، طهران ، ١٩٧١، ص ٢٣٨.

(٣) ابن الأثير : الكامل – مخطوط الظاهرية ، ص ٦٠٩، زكار: الجامع في أخبار القرامطة، ج١، ص ١٢٢.

عن قيام عن دولة قرامطة الإحساء والبحرين وفعاليتها في تلك المنطقة والنتائج التي ترتبت على قيام تلك الدولة.

قيام دولة القرامطة بالبحرين:

كانت بلاد البحرين إضافة إلى شهرتها العالمية بتجارة اللؤلؤ الذي يستخرج من سواحلها ، من أخصب مناطق الجزيرة العربية. وعلى الرغم من غنى مواردها الطبيعية والاقتصادية ، فإن جماهير لفلاحين والعمال والحرفيين والعبيد وأعراب بواديها ، كانوا يئنون من وطأة الضرائب ويتذمرون من الضيق الاقتصادي والبؤس الاجتماعي . ويذكر قدامة بن جعفر بأن الخراج السنوي لهذه البلاد بلغ عام٢٣٧هـ ٩٤٨م كان خمسمائة ألف دينار [(١)] وبذلك يكون خراج هذه المنطقة أكثر من خراج دمشق والبصرة والكوفة وأرمينية[(٢)] . هذه الضرائب الزراعية كانت أحد العوامل الرئيسية لاستياء العوام وإقبالهم على اعتناق الأفكار القرامطية وتشكيلهم القاعدة الاجتماعية للحركة القرمطية في البحرين . ولم تقتصر الحركة على استمالة الفلاحين والعوام بل استهدفت أعراب البادية فقد جرى إرسال داعية إلى منطقة هجر[(٣)] حيث أخذوا يدعون قبائلها : (فأجابه بنو الأضبط من

---

(١) قدامة بن جعفر : كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، تحقيق : دي خويه، مطبعة بريل ليدن، ١٨٨٩م ، ص٢٣٩.

(٢) الريس (محمد ضياء الدين): الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، دار المعارف ، ط٣، القاهرة،مص ٥٢٩- ٥٣٠.

(٣) هجر : مدينة بالبحرين : طولها من جهة المغرب ثلاث وسبعون درجة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة ، وتعتبر قاعدة بلاد البحرين، بينها وبين البصرة خمسة عشرة يوماً على الإبل.

=

كلاب، وساروا إليه بحرمهم وأموالهم فأنزلهم الإحساء ... ولما اجتمع إليه العرب مناهم ملك الأرض كلها)[١] ومن المرجع أن اسم هذا الداعية كان أبوا زكريا يحيى بن علي الطمامي ، وقد أنقذ هذا الداعية سنة ٢٨١هـ / ٨٩٤م ثم ثم ألحق بعد مدة بأبي سعيد بن براهم الجنابي ، ويلاحظ أن هذا قد تم بعد القضاء على ثورة الزنج وتصفيتها نهائياً.

ذلك أن البحرين منطقة خليجية خاضعة للمؤثرات القادمة من البصرة، ولا شك أن الدعوة القرمطية قد استغلت فرصة القضاء على هذه ونتائج أعمال التصفية مع انتشار التشيع بين القبائل هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى ساعدت على انتشار الأفكار القرمطية وهي مرتبطة بتذمر الطبقات الشيعية وانخراطها في الدعوة ، وطرح برنامج إصلاحي ضبابي من خلال الصفات التي منحت للإمام لاستقطاب كافة الفئات الفقيرة في الدولة العباسية بالإضافة إلى امتلاك الدعاة خبرات وتجارب تنظيمية باطنية في العمل الباطني أو السري الدقيق ، والبناء الداخلي للمجتمع الجديد ، ويعلل هذا سرعة الاستجابة التي لقيها الطمامي أولاً ثم الجنابي من بعده.

لقد قام أبو سعيد بتصفية الداعية الطمامي ، ومن المرجع أنه قد قتله،

=

الحموي (ياقوت) معجم البلدان، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م، ا لمجلد الخامس، ص ٣٩٣.

الحميري (عبد المنعم) : الروض المعطار في خبر الأقطار، حققه : إحسان عباس ، بيروت، لبنان، ص ٢٣٧

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق : د. جمال الدين الشيال، مطبعة شركة الإعلان الشرقية، القاهرة ، ١٣٨٧هـ /١٩٦٧م، ص ١٦٠.

ويمكن أن يستنتج من هذا العمل بداية تمرد على دعوة العراق ، ويرجع أن هذا قد حدث إثر استيلاء زكرويه بن مهرويه على هذه الدعوة وتصفيته لكل من عبدان وحمدان وحمدان بن الأشعث [(١)] ولا شك أن هذا كان له أبعد الآثار على أبي سعيد وخططه المستقبلية ، بدأ أبو سعيد نشاطه في بلدة هجر قصبة البحرين ، ولقي معونة عشيرة قوية عرفت ببني سنبر ، وتحالف أبو سعيد مع هذه العشيرة وكان قوام هذا التحالف : القيادة لأبي سعيد ، والمشورة لآل سنبر ، واستمر العمل بهذه القاعدة بعدما أفلح أبو سعيد في تأسيس دولة قرامطية في البحرين ، فقد كانت السيادة في هذه الدولة لآل أبي سعيد والوزارة لآل سنبر وفق خطة محكمة .[(٢)]

ليس هناك من إشارات إلى قيام إمامة الدعوة الإسماعيلية بمراسلة أبي سعيد أو توجيهه ، ومراد هذا على ما حل ببيت الإمامة في السليمة بسبب نشاط قرامطة الشام، وسفر المهدي والقائم نحو الرملة فمصر فالمغرب ، وليش من المستبعد ، لا بل من المرجع أن نوعاً من الاتصالات قد جرى بعد قيام الخلافة الفاطمية ، لكن ليس المهم قيام هذه الاتصالات بل هو أن الدعوة في البحرين نشأت مستقلة عن التوجيه الإسماعيلي والمثير للانتباه أن أبا سعيد لم يستغل هذا الاستغلال استقلالاً شخصياً بأن يدعي النسب العلوي كما فعل صاحب الزنج ويعلن عن نفسه إماماً ، أو يعلن عن نفسه إماماً مهدياً من دون

---

(١) لويس (برنارد) : أصول الإسماعيلية، بغداد، ١٩٧٤م، ص ١٧١.

دي غويه (مايكل) : القرامطة ، بيروت ، ١٩٧٨م، ص ٤٢.

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ص ١٦٠ ، زكار : الجامع في أخبار القرامطة ، ج١، ص ١٤٨.

هذا النسب كما فعل علي بن الفضل [(١)]. لقد اكتفى أبو سعيد باتخاذ لقب سيد وسار في إتباعه سيرة الزعيم البدوي وفق عادات الزعامة في قبائل ما قبل الإسلام، وهكذا كان أولاده من بعده ، وركز جهوده الدعوية ونشاطاته الحربية وأوقفها على الاستيلاء على بلدة هجر.

وهكذا خرج على السلطة عام ٢٨٦هـ/٨٩٩م [(٢)] ،فاستولى على القطيف [(٣)] والإحساء والبحرين ولم يبق في طاعة الخليفة (هجر) عاصمة البلاد ومركز التجارة والأغنياء وبعض القرى المجاورة لها [(٤)] التي سقطت بيده عام ٢٩٠هـ/٩٠٢م بعد حصار عسكري واقتصادي دام عشرين شهراً ونفياً[(٥)] حيث دمرها ونقل من أطاعه من أهلها إلى الإحساء التي غدت عاصمة لدولة لم يعرف تاريخ شبه الجزيرة العربية مثيلاً لها. لقد أنشأ أبو سعيد مجتمعا جديداً ، أساس خطته تجربة حمدان بن قرمط في سواد العراق، ففي البداية جمع صبان أتباعه (في دور وأقام عليهم ما يحتاجون إليه ووسمهم لئلا

(١) زكار : الجامع في أخبار القرامطة ، ج١، ص ١٤٨.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٨ ، ص ١٩٦.

ثابت بن سنان : تاريخ أخبار القرامطة وترجمة الحسن الأعصم ، تحقيق : د. سهيل زكار، بيروت، ١٣٩١هـ /١٩٧١م، ص ١٣.

(٣) القطيب : بلدة بالمنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية، تقع على خليج تاروت بالخليج العربي.

الحميري : الرياض المعطار، ص ٤٦٥، ياقوت الحموي : معجم البلدان، المجلد الرابع، ص ٣٧٨.

الموسوعة العربية الميسرة، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص ١٣٩٠.

(٤) المقريزي : اتعاظ الحنفا، ص ١٦٠.

(٥) المصدر السابق، ص ١٦١.

يختلطون بغيرهم، ونصب لهم عرفاء ، وأخذ يعلمهم ركوب الخيل والطعان ، فنشأوا لا يعرفون غير الحرب ، وقد صارت دعوته طبعاً له).[١]

بوساطة هؤلاء عندما غدوا رجالاً أمن البنية الأساسية والعمود الفقري لدولته ومجتمعه ، ويلاحظ في هذا المقام أن الجنابي لم يبدع هذه الطريقة ، فهي أساس تجربة جيش المعتصم من الغلمان الأتراك ، وكانت أيضاً مطبقة في ثغور بلاد الشام سيما في مدينة طرسوس[٢] . وتتجلى أهمية سياسة الجنابي في حسن استفادته من هذه التجربة وتطويرها لصالح دولته العقائدية .و شرع أبو سعيد ، عقب نجاح ثورته في بناء المجتمع الجديد وهيئات السلطة . ويصف المقريزي أعمال أبي سعيد بقوله : ((أقبل أبو سعيد على جمع الخيل وإعداد السلاح ونسج الدروع والمغافر، واتخاذ الإبل، وإصلاح الرجال ، وضرب السيوف والأسنة ، واتخاذ الروايا والقرب ، وتعليم الصبيان الفروسية، وطرد الأعراب من قريته ، وسد الوجوه التي يتعرف منها أمر بلده وأحواله بالرجال ، وإصلاح أراضي المزارع، وأصول النخل ، وإصلاح مثل هذه الأمور وتفقدها ، ونصب الأمناء على ذلك ، وأقام العرفاء على الرجال ، واحتاط على ذلك كله حتى بلغ من تفقده أن الشاة إذا ذبحت تتسلم العرفاء اللحم ليفرقوه على من ترسم لهم ، ويدفع بالرأس والأكارع والبطن إلى العبيد والإماء ويجز الصوف والشعر من الغنم ويفرقه على من يغزله ، ثم يدفعه إلى من ينسجه عبياً وأكسية وغرائز وجوالقات ، ويفتل منه حبال ، ويسلم الجلد

(١) ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي) : البداية والنهاية، مكتبة معارف بيروت، ١٩٦٦م.

(٢) ابن خياط (خليفة) : تاريخ خليفة بن خياط ، دمشق، ١٩٦٧م، ج٢، ص ٦٣٧، مؤلف مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ليدن، ١٨٦٩م، دمشق، ١٩٧٢- ١٩٧٤م، ج٣، ص ٢١٩- ٢٢٤.

إلى الدباغ ، ثم إلى خرازي القرب والروايا والمزاود ، وما كان من الجلود يصلح نعالاً وخفاً عمل منه ، ثم يجمع ذلك كله إلى خزائن))[١] يقصد خزائن الدولة ، يمكن الاستنتاج من نص المقريزي أن الجنابي أقام مجتمعاً من الطراز الأمثل بشكل لم تعرف له سابقة من قبل ذلك أنه أحدث تحولات اقتصادية اجتماعية وسياسية لمصلحة رأسمالية النظام الحاكم هذا النظام الذي قام على المحاربين ولجأ إلى استثمار طاقات الصناع والفلاحين وسواهم لتأمين ما تحتاجه الآلة الحربية للمقاتلين وذلك عن طريق احتكار جميع المواد الأولية الخام ثم امتلاك هذه المواد بعد تصنيعها لكن في الوقت ذاته أعطى الصناع وسواهم ما يكفيهم لشدهم أكثر فأكثر إلى التفاعل والتلاحم وهذا النظام . وعند الرجوع إلى المصادر يلاحظ بأن الجنابي لم يبن في بلدته المساجد كما لم يقم بها صلاة الجمعة ، وعلى هذا لم تعرف دولته الدعوة لخليفة أو إمام ، فهو وحين أنشأ دولته لم تكن الخلافة الفاطمية قد قامت ، وكان هو بالأساس معادياً للدولة العباسية.

من جهة أخرى إن مواطني دولة الإحساء عاشوا مع نظام دولتهم بما بدا ظاهرياً أنه إخلاص وانسجام ولربما كان في الواقع مثل إخلاص العبيد ، وعلى هذا لم تورد الأخبار أية حوادث تمرد أو فتن داخلية ، وكان هذا أمراً منطقياً في دولة قامت على المحاربين الأشداء الذين كانوا لا يعرفون إلا للبطش حدوداً ويشهد على ذلك تاريخ غارتهم في العراق وسواها وقعهم لطرق الحج واستباحتهم لمكة المكرمة أيام الحج كما سنذكر لا حقاً.

ولضمان بقاء الاستقرار والهدوء في الداخل من أجل الانطلاق للحروب

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ص ١٦٤.

في الخارج سعت الدولة لإقامة نوع من التوازن في المجتمع عن طريق تأمين الخدمات العامة [(١)] ففي الميدان الاجتماعي منعت الحكومة الربا لحماية المواطنين من جشع المرابين وقضت على الاستغلال بشتى صوره وأشكاله ، وقدمت المساعدات إلى الفالحين والصناع لتشجيعهم في عملهم ولزيادة الإنتاج، وأوجدت العمل للعاطلين بما أنشأته من مزارع ومصانع حكومية وخفضت الضرائب على السكان ، وقدمت المساعدات المجانية لمن تخرب بيته وأراد إصلاحه ، ولم تكن لدى مالكه القدرة على إصلاحه[(٢)].

وقضى على كل مظاهر الأبهة في المسكن والملبس والأعياد والاحتفالات[(٣)].

وفي سبيل الحفاظ على موارد البلد المالية وعدم تسرب أموال الدولة والشعب إلى الخارج وتحرير اقتصاد البحرين من التبعية للاقتصاد العباسي ، قامت الحكومة بصك عملة وطنية من الرصاص وذكر ناصر خسرو :((أن البيع والشراء والعطاء والأخذ يتم هناك ، يقصد بلاد البحرين بواسطة رصاص، وهذه العملة لا تسري في الخارج [(٤)]. وقد أسهم صك نقود وطنية إلى جانب احتكار الدولة للتجارة مساهمة إيجابية في تحقيق الاكتفاء الذاتي وبناء اقتصاد وطني مستقل.

---

(١) زكار : الجامع في أخبار القرامطة، ج١ ، ص ١٤٩- ١٥٠.

(٢) خسرو (ناصر) : سفر نامة ، ترجمة : د. يحيى الخشاب، مطبعة لجن التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٥هـ- ١٩٤٥م، ص ٩٣.

(٣) ابن حوقل : صورة الأض، ليدن، ١٩٣٨م، القسم الأول ، ص ٢٦.

(٤) خسرو : سفر نامة ، ص ٩٣.

لقد بهرت تجربة الإحساء عقول معاصريها أيام أبي سعيد وخلفائه من بعده ، حيث وصف ابن حوقل وهو جغرافي إسماعيلي أوضاع دولة الإحساء بعد قرابة قرن مضى على تأسيسها ، وذلك أيام الصراع بينها وبين الخلافة الفاطمية وكان مما قاله : ((وبها أموال وعشور ووجوه مرافق وقوانين ومراصد وضروب مرسومة من الكلف إلى ما يصل إليهم من بادية البصرة والكوفة وطريق مكة بعد إقطاع ما بالبحرين من الضياع بضروب ثمارها ومزارعها من الحنطة والشعير والنخل لأتباعهم المعروفين كانوا بالمؤمنين،ومبلغها نحو ثلاثين ألف دينار ، وما عدا ذلك من المال والأمر والنهي والحل والعقد وما كان يصل إليهم من طريق مكة ومال عمان وما وصل إليهم من الرملة والشام فمتساو، فيه آراء ولد أبي سعيد الباقين ...، فإذا هموا بقسمة ما يصل إليهم من مال السنة كان ذلك اليوم معلوم مذ لم يزالوا...))(١) .

وعندما وصلت أخبار أبي سعيد إلى السلطات العباسية في بغداد عجلت بإرسال جيش ضده فلحقته الهزيمة الماحقة (٢) إلا أن أوضاع الخلافة آنذاك ، وعلى الأخص اضطراب الجيش وانشغال المعتضد بأمر وصيف غلام ابن أبي الساج (٣) وتدهور الأوضاع المالية اضطرته إلى ترك خصمه فتركه وشأنه وهذا ما كان يأمله أبو سعيد بعد أن صار كل إقليم البحرين في يده عام

(١) ابن حوقل : صورة الأرض، ص ٣٣- ٣٤.

المقدسي (محمد بن أحمد) : أحسن التقاسيم، ليدن، ١٩٠٦م، ص ٩٣- ٩٤.

البيروني (أبو الريحان محمد) : الآثار الباقية من القرون الخالية، لايبزغ، ١٩٢٣م، ص ٢١٢- ٢١٣.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٦، ص ٩٤- ٩٥، المقريزي : اتعاظ الحنفا، ص ١٦٢.

(٣) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ص ١٦٣.

٢٩٠هـ / ٩٠٢م [١] حيث أخذ يستعد للاستيلاء على لابالد المجاورة للبحرين وبث دعوته فيها فزحف إلى اليمامة وضمها إلى بلاده ، وتوجه إلى عمان فاستولى على قسم كبير منها ومن الجزر التابعة لها [٢] ولولا اغتياله في الحمام عام ٣٠١هـ /٩١٤م نتيجة مؤامرة خارجية عهد بتنفيذها إلى خادم كان قد أخذه من عسكر العباس الغوني، لضمها كلها وأكثر منها ، وبعد موته استلم أبو طاهر سليمان ، رئاسة المجلس العقداني عام ٣٠٥هـ ٩١٧م[٣] وانتخب قائداً عاماً للجيش عام ٣١٠هـ / ٩٢٢م . وكان رجلاً قويا اشتهر بعلو الهمة والثبات في القتال [٤] حيث سار على خط أبيه في تحقيق أهداف القرامطة فقاد حملات كثيرة زحف بها إلى البصرة والكوفة تارة وإلى الغرب أي إلى الحجاز تارة أخرى ، وكان في كل غزواته مظفراً حتى صار الخليفة يخشى بأسه [٥] هذا ولم يمت أبو طاهر القرمطي سنة ٣٢٢هـ/٩٤٢م إلا وقد فرض على حكومة بغداد وسلطات الشام ومصر الأموال العظيمة التي كانت تحمل إليه كل سنة اتقاء خطره [٦] . نهج خلفاء أبي طاهر السياسة نفسها

(١) الجوزي (بندلي) : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، بيروت ، ١٣١/١.

(٢) الاصطخري (أبو إسحق إبراهيم بن محمد) : مسالك الممالك، طبعة بريل، ليدن، ١٩٢٧م، ص ١٤٩.

(٣) ابن حوقل (أبو القاسم محمد النصيبي البغدادي) : المسالك والممالك، باعتناء دي غويه، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٧٣م، ص ٢١١ ، المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ص ١٦٥.

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٧٤/٦.

(٥) عريب بن سعد القرطي : صلة تاريخ الطبري ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ١٣٥٨هـ- ١٩٣٩م، ص٧٦.

(٦) ثابت بن سنان : تاريخ أخبار القرامطة، ص ١٠٤.

التي رسمها أبو سعيد وحافظ عليه أبو طاهر إلى آخر يوم في حياته[(١)] من جهة أخرى انصرف القرامطة إلى توطيد نظامهم الاجتماعي وتطوير اقتصادهم وإصلاح أحوالهم الداخلية ، وأخذ خلفاء أبي طاهر ، منذ أن أصبحت دولة بني العباس عام ٣٣٤هـ/٩٤٥م تحت سلطة البويهيين الشيعة ، يتقربون من حكام بغداد ويطلبون ودهم لما بينهم من أواصر القرابة الروحية. وظهر الفاطميون في شمال أفريقية واستولوا على مصر وأرسلوا قواتهم لاحتلال بلاد الشام والجزيرة العربية ، وهي المناطق التي تشكل الامتداد الطبيعي للطرق التجارية المارة بمصر آن ذاك .

فاصطدموا بالقرامطة وقامت بين إخوان العقيدة الواحدة حروب كانت في أغلب الأحيان في جانب القرامطة[(٢)].

مهاجمة الحجيج وقطع طريق الحج:

لم يقتصر مهاجمة الحجيج على قرامطة الإحساء والبحرين وإنما سبقهم إلى ذلك قرامطة العراق أيام زكرويه بن مهرويه فقد شرع في مهاجمة قوافل الحجيج والبطش بها ونهبها ، وقد أجبر هذا الخليفة المكتفي العباسي على حشد ما أمكنه من قوات وجهها ضده ، وتمكنت القوات العباسية من

---

(١) الجوزي (بندلي) : المرجع السابق، ١٤٥/١.

(٢) سعد أحمد صادق: تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي، دار ابن خلدون، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٢٩٠.

ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤٢/٧.

المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٦.

إنزال ضربة حاسمة بالقرامطة ، فقد قتلت عددا كبيراً منهم وأسرت أعداداً أكبر ، وقد أصيب زكرويه أثناء القتال بجروح مميتة ففقد حياته إثر ذلك وكان ذلك سنة ٢٩٤هـ/٩٠٧م، وبمقتل زكرويه انطفأت ثائرة قرامطة الكوفة، وطويت صفحة أخبارهم (١) ، والمثير للدهشة أن تصرفات القرامطة تجاه الحجيج لم تكن عبثاً أو بهدف السرقة والسلب والنهب فقط، وإنما أيضا تكمن وراء عقيدتهم حسبما يروي المؤرخون، قال سعد القمي :

"... وزعموا أن جميع الأشياء التي فرضها الله على عباده وسنها نبيه صلى الله عليه وسلم فيها ظاهر وباطن ، وأن جميع ما استعبد الله به العباد في الظاهر من الكتاب والسنة، فأمثال مضروبة وتحتها معان هي بطونها عليها العمل وفيها النجاة ... واستحلوا مع ذلك استعراض الناس بالسيف وسفك دمائهم وأخذ أموالهم والشهادة عليهم بالكفر والشرك ... وقد كثر عدد هؤلاء القرامطة ، ولم يكن لهم شوكة ولا قوة ، وكان كلهم بسواد الكوفة وكثروا بعد ذلك باليمن ونواحي البحرين واليمامة وما والاهما ، ودخل فيهم وكثير من العرب فقوي حالهم بهم وأظهروا أمرهم" (٢). وتبعاً لذلك قام قرامطة الإحساء والبحرين بإكمال ما بدأ به قرامطة العراق من مهاجمة للحجيج على الرغم من أنه لم يكن هناك أي تنسيق بين القرامطة في العراق والبحرين في أي نوع من العمليات العسكرية ، ففي سنة ٣١٢هـ ، قام

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١٣٣/١٠- ١٣٥، أخبار القرامطة ، ص ٣٠- ٣٥، الجامع في أخبار القرامطة، ١٣٤/١.

(٢) القمي (سعد) : المقالات والفرق، طهران، ١٩٦٣م، ص ٨٢- ٨٣، الجامع في أخبار القرامطة، ١١١/١.

أبو طاهر القرامطي بالتحرك إلى الهبير [١] ومعه جيش عرمرم ليلقى الحجاج في رجوعه من مكة ، فأوقع بقافلة تقدمت معظم الحجاج وهم بفيد [٢] ، فأقاموا بها حتى فني زادهم، بعدها ساروا على طريق الكوفة فأوقع بهم القرامطة وأخذوهم ، وأسروا قواد الحملة كما أخذ أبو طاهر جمال الحجاج جميعها ، وما أراد من أمتعة والأموال والنساء والصبيان ، وعاد إلى هجر ، وترك الحجاج في مواضعهم فمات أكثرهم جوعاً وعطشاً من حر الشمس . وكان عمر أبي طاهر حينئذ سبع عشر سنة . وانقلبت بغداد واجتمع حرم المأخوذين إلى حرم المنكوبين الذين نكبهم ابن الفرات وجعلن ينادين القرمطي الصغير أبو طاهر قتل المسلمين من الحاج في طريق مكة ، والقرمطي الكبير ابن الفرات قتل من في بغداد من المسلمين ، وكانت صورة شنيعة حيث كسر العامة منابر الجوامع وسودوا المحاريب [٣] وهنا يتبادر

(١) الهبير : قال ياقوت الحموي في معجم البلدان، رمل زرود في طريق مكة.

فيد : بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة يودع بها الحاج أزوادهم وما يثقل أمتعتهم عند أهلها فإذا رجعوا أخذوا أزوادهم.

الحموي (ياقوت) : معجم البلدان، بيروت، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م، ٢٨٢/٤، الحميري : الروض المعطار، ص ٤٤٣.

(٢) فيد : بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة يودع بها الحاج أزوادهم وما يثقل أمتعتهم عند أهلها فإذا رجعوا أخذوا أزوادهم.

الحموي (ياقوت) : معجم البلدان، بيروت، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م، ٢٨٢/٤، الحميري : الروض المعطار، ص ٤٤٣.

(٣) فهد (النجم عمر بن فهد) : إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق وتقديم : فهيم محمد شلتوت، ط١، القاهرة ، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٣م، ٣٦٩/٢.

للذهن سؤال هام : لماذا أخذ القرامطة وحدهم كفرع من فروع الإسماعيلية بمبدأ استعراض الناس ؟... والمرتبط ليس فقط بمبدأ عقيدتهم كما مر من قبل وإنما بأمور أخرى . من الصعب إعطاء جواب شاف ومقنع لهذا السؤال ، وإنما إذا تذكرنا أن الإسماعيلية لم تكن حركة واحدة ، بل حركات ، وأنه كما حصل في تاريخ التشيع العام حين انضوى العديد من الحركات المناوئة والمعارضة تحت لواء التشيع ، عن إيمان واجتهادات ومطالب مختلفة أو للتمويه ، حصل الشيء ذاته في الإسماعيلية ، إذا تذكرنا هذا سهل علينا الجواب . لربما وجد عدد لا بأس من الحركات المطالبة بالمعارضة ، وذات الفكر القريب من الفكر الإسماعيلي ، ولشهرة الإسماعيلية وضخامة إمكاناتها انضووا تحت لوائها ، وليس من المستبعد أيضاً أن الإسماعيلية أرادت تجربة العمل العسكري المحدود ، إنما البالغ الشدة ، لتدرس ردات الفعل ، أو لتشغل خصومها في سبيل النجاح التام في مكان آخر ، واعتماد مثل هذه الطرائق أمر معقول لكن لا يمكن ضبط نتائجه [(١)].

والذي يؤكد ذلك أن أبا طاهـــر أعاد مهاجمة قافلة الحجيج سنة ٣١٣ هـ من أجل تحقيق مطامعه السياسية في التوسع محاولاً الضغط على الخليفة باعتباره حامي المسلمين ، ذلك أنه بعد أن أخلى سبيل من كان عنده من الأسرى من الحجاج وغيرهم ، طلب من المقتدر البصرة والأهواز فلم يجبه إلى ذلك فارتحل من هجر يريد الحج ، وكان جعفر بن ورقاء الشيباني والياً على الكوفة ، وطريق مكة ، فلما سار الحجاج من بغداد سار جعفر بين

(١) فهد (النجم عمر بن فهد) : إتحاف الورى بأخبار أم القرى، ١٠٨/٨، زكار : الجامع في أخبار القرامطة ١٢٢/١.

أيديهم خوفاً من أبي طاهر ، ومعه ألف رجل من بني شيبان ، وسار مع الحجاج صاحب البحر وغيره في ستة آلاف رجل ، فلقي أبو طاهر ، جعفر ، وحصل بينهما معركة شديدة يشيب لها الولدان ، وكان نتيجتها انهزم جعفر وأصحابه . بعدها توجه أبا الطاهر لملاقاة القافلة الأولى وقد انحدرت من العقبة ، فردهم إلى الكوفة ومعهم عسكر الخليفة ثم تبعهم إلى الكوفة ، واشتبك معهم في قتال عنيف ، فانهزم جند الخليفة وأعمل فيهم السيف، وهرب الباقون والحجاج من الكوفة ودخلها أبو الطاهر وأقام ستة أيام يدخلها نهاراً ويجلس في المسجد إلى ما بعد العشاء ويخرج يبيت في معسكره ، وحمل منها الغنائم مالا عين رأت ولا أذن سمعت من أموال ، وجواهر وثياب من خز وديباج وغير ذلك، وعاد إلى وطنه هجر . هذا ولم يحج في هذا العام من الناس أحداً[(١)] . ومن أجل إنجاح العمليات العسكرية ضد الخصوم قام أبو الطاهر بإرسال الجواسيس إلى مكة المكرمة لمعرفة أخبار الحجيج وأخبار المنطقة وأخبارها بغية مهاجمة الحجبج من أجل سلبهم ونهبهم وقتلهم والدليل على ذلاك الحادثة التي وقعت سنة ٣١١ هـ حيث أنفذ أبو الطاهر رجالاً من جواسيسه إلى مكة المكرمة في موسم الحج وكانت قوافل الحجاج قد خرجت مع أبي الهيجاء بن حمدان في تلك السنة فكان الجاسوس يقوم على المحجبة فيقول : يامعشر الناس ادعوا على القرمطي عدو الله وعدو الإسلام ، ويسأل عن أمير الحاج وفي كم هو وكم أرزاقهم ، ويسأل عمن خرج من

(١) فهد : إتحاف الورى، ٣٧٠/٢.

مسكويه : تجارب الأمم وذيله، القاهرة ، ١٩١٤م، ص ١٤٣.

ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٩٩/٨، زكار : الجامع في أخبار القرامطة ٢١٧/١.

التجار وما معهم من الأموال ، فكان ذلك دأبه حتى قضي الحج ، ثم خرج في أول النفر فأسرع إلى الإحساء ووصل إلى هناك في أيام يسيرة فأخبر القرامطة بصورة الأمر[١] هذا وعند تحرك القافلة توجه أبو طاهر باتجاه القافلة ورجاله نحو من ستمائة على المطى فأنفذهم مع فرسانه فأحاطوا بالقافلة ومنعوا الناس من الهرب ، وكان قد هرب خلق منهم في وقت القتال ، فتلف كثير منهم في الطريق عطشاً وأخذ بعضهم الأعراب فسلبوهم ولسلم قوم منهم إلى زبالة [٢] ثم ساروا إلى الكوفة أما القسم الآخر من قوافل الحجاج فقد وقع تحت يد أبو الطاهر حيث أمر بتميز الحاج، وإخراجهم من القوافل فعزل الجمالين من والنصاع وكانوا قد عطشوا اعطشاً شديداً ، فلما هبط الليل ضجر الموكلون منهم ، فاخذوا ما معهم وخلوهم فورد من ورد منهم إلى الكوفة في حالة يرثى لها متورمي الأقدام في صور الموتى ، ورحل أبو الطاهر من الغد بعد أن أخذ من أبي الهيجاء وحده نحو عشرين ألف دينار من الأموال التي لا تحصى كثرة [٣] هذا وقد وصلت حملات أبي طاهر الذروة في عام ٣١٧هـ٩٢٩م بمهاجمة مكة في موسم الحج ، حيث لحق بالحجاج بمكة يوم التروية أي قبل طلوعهم عرفات بساعات قليلة ، فقاتلهم أمير مكة ومن معه ، ولم يكن إلا القليل حتى هزمهم (أي أبو الطاهر) وأعمل فيهم السيف ونهب الحجيج وقتل الحجاج في المسجد الحرام ، وفي البيت نفسه ، ورمى القتلى في

(١) زكار : الجامع في أخبار القرامطة ٤٩٥/٢.

(٢) زبالة : منزل معروف بطريق مكة من الكوفة ، الحموي (ياقوت) : معجم البلدان ، ار صادر ، بيروت، ١٩٥٧م، ١٢٩/٣.

(٣) زكار : المرجع السابق ٤٩٥/٢

بئر زمزم حتى امتلأت بجثث القتلى ، ووقف يلعب بسيفه على باب الكعبة وينشد ويقول :

أنا بالله وبالله أنا ❖❖❖ يخلق الخلـــق وأفنيهم أنا

وأصعد رجلاً ليخلع ميزاب البيت فوقع صريعاً ميتاً ، ودفن باقي القتلى في المسجد الحرام بدون تكفين ، ولا صلى عليهم ، كما اقتلع الحجر الأسود [(١)] وأبواب الكعبة ، وأخذ جميع ما كان فيها من الحلي الثمينة والتحف القديمة كالدرة اليتيمة ذات الأربعة عشرة مثقالاً وقرطي مريم وقرن كبش إبراهيم وعصا موسى ملبسين بالذهب ومرصعين بالجواهر إلى غير ذلك من المثمنات النادرة والأواني الغالية كما نهب دور مكة [(٢)]

هذا وأنشد أثر انصرافه من مكة قائلاً:

ولو كان هذا البيت لله ربنا ❖❖❖ لصب علينا النار من قوقنا صبا

لأنا حججنا حجة جاهليـــة ❖❖❖ مجللة لم نبق شـــرقاً ولا غرباً

وأنا تركنا بين زمزم والصفا ❖❖❖ جنائز لتبغي ســوى ربها ربا[(٣)]

إنها والحق لم تكن حجة من أية نوع من الأنواع بل كانت حملة

(١) السنجاري (علي بن تاج الدين بن تقي الدين) : منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، تحقيق : د. جميل عبد الله المصري، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، ١٨٨/٢ ، ١٩٠ ، فهد : إتحاف الورى ٣٧٤/٢- ٣٧٥- ٣٧٧، زكار : المرجع السابق ٢٢٣/١

(٢) عريب : صلة تاريخ الطبري، ص ٩٥، فهد : إتحاف الورى ٣٧٧/٢، السنجاري : منائح الكرم ١٩١/٢ ، أخبار القرامطة، ص ٥٣ ، ٢١٥.

(٣) أخبار القرامطة، ص ٥٣- ٢١٥ ، زكار : الجامع في أخبار القرامطة ١٥٣/١.

بربرية قصدت إلغاء الحج، وذلك تمهيداً لإعلان قيامة عظمى، حيث لم يلبث بعد هذه الحملة حتى ظهر في الإحساء زكريا الطمامي بن أبي زكريا الداعية القرمطي السابق لأبي سعيد ، ويروى أن أبا طاهر " جمع الناس بالبحرين ، وقال معشر الناس إنا كما ندخل عليكم بحسب أهوائكم ، مرة بمحمد ، ومرة بعلي ، ومرة بإسماعيل بن جعفر ، ومرة بمحمد بن إسماعيل وبالمهدي ، وهذا إلهنا وإلهكم ، وربنا وربكم " يعني زكريا الطمامي.

وحار الكاتب في تعليل هذه الحادثة ، فالأوائل عللوها ردة إلى الديانة الزاردشتية وإلى عبادة النيران ، وهذا يعيد الاحتمال ، ورأى آخرون فيها تمردا على الفاطميين ورفضاً لسلطتهم ، وفي هذا أيضاً ما فيه ، وسيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أنه لم تقم للفاطميين سلطة على قرامطة الإحساء والبحرين.

إن التعليل يمكن إيجاده في مضامين العقيدة الإسماعيلية في مسألتي الكشف عن علوم الباطن وإعلان القيامة العظمى [(١)] ، وهذا ما يؤكده سعد القمي في حديثه عن مضامين عقيدة القرامطة بقوله : " وتشعبت بعد ذلك فرقة ... ممن قال بإمامة محمد بن إسماعيل تسمى القرامطة ، .. وقالوا : يكون بعد محمد (صلى الله عليه وسلم) سبعة أئمة: علي وهو إمام رسول ، والحسن والحسين وعلي بن الحسين ، ومحمد بن علي ، وجعفر بن محمد ، ومحمد بن إسماعيل بن جعفر ، وهو الإمام القائم المهدي وهو رسول وهؤلاء رسل أئمة، ... وزعموا أن محمد بن إسماعيل حي لم يمت ، وأنه غائب مستتر في بلاد الروم

(١) البيروني : الآثار الباقية ، ص ٢١٣، لويس برنارد : أصول الإسماعيلية، ص ١٨٥- ١٨٧، أخبار القرامطة، ص ١٥٨، زكار : الجامع في أخبار القرامطة، ١٥٣/١.

وأنه القائم المهدي ، ومعنى القائم عندهم أنه يبعث بالرسالة وبشريعة جديدة وينسخ بها شريعة محمد ،... وزعموا أن محمد بن إسماعيل هو خاتم النبين [(١)] وعلى ضوء هذا الأمر يمكننا فهم ما أقدم عليه قرامطة الإحساء والبحرين من استعراض لخصومهم وإغارات على قوافل الحج ومهاجمة مكة المكرمة . فلقد أراد القرامطة ما أرادته الدعوة الإسماعيلية ، إيقاف الحج بشكل نهائي بواسطة مهاجمة قوافل الحجيج وقطع طريق الحج .

إن الحج هو شعيرة تميز بها الإسلام ، وهي الشعيرة الوحيدة التي تعلن بشكل عالمي ظاهري عن استمرارية الإسلام والعمل بمبادئه أممياً ، فالصلاة، ودفع الزكاة وصوم رمضان مع التلفظ بالشهادتين شعائر يمكن أن تمارس بشكل فردي وسري ، لكن الحج لا يمارس إلا في بقعة محددة وبصورة علنية، واستمرار الحج معناه إخفاق العمل في سبيل إعلان القيامة ، ونجاحها في تعطيل الشريعة ، وإحلال دين الكشف الذي سيأتي به القائم محلها[(٢)] بعدها بعدها لم يطل الأمر بزكريا الطمامي ، فقد حاول الانفراد بالأمر وتصفيته آل أبي سعيد الجنابي وآل سنبر ، لذلك سارع أبو طاهر فقتله وتخلص منه ، ويبدو أنه عندما أعلن تأليه زكريا الطمامي ، جرى الإعلان عن أبي طاهر إماما مهديا ، فهذا ما يستفاد من شعر أورده له البيروني [(٣)] ويتوافق هذا أيضاً مع ماحصل لحمزة بن علي الزوزني أيام

(١) القمي : المقالات والفرق، ص ٨٣- ٨٦، زكار : الجامع في أخبار القرامطة، ١/١١٠- ١١١.

(٢) زكار : المرجع السابق ١/١١٥- ١١٦.

(٣) البيروني : الآثار الباقية ، ص ٢١٤، دي خويه : القرامطة، ص ١٠٤- ١٠٨، أخبار القرامطة، ص ١٦٠- ١٦١.

الحاكم بأمر الله (١).

من جهة أخرى لم يتخذ الخليفة العباسي أي إجراء ، ولم تبد حكومة بغداد أية حركة يستدل منها على أنها تنوي معاقبة القرامطة . ولكن فيما بعد ومع مرور الأيام خفت حدة نشاط أبي طاهر لكنه لم يتوقف ، وبالمقابل نلاحظ تجدد الاتصالات بينه وبين بغداد وطلبت السلطات العباسية منه منذ عام ٣٢٢هـ/٩٣٤م عدم التعرض لقوافل الحجاج ، ورد الحجر الأسود ، وذلك مقابل اعتراف الخليفة العباسي به أميراً على البلاد التي يحكمها ، وبعد مدة تم التوصل إلى اتفاق ، وبات على الخلافة العباسية بموجبه لا الاكتفاء بالاعتراف بأبي طاهر بل بدفع مبلغ كبير من المال له قدر بمائة وعشرين ألف دينار كل سنة ، ويعطي عن كل حاج ضريبة معلومة ، ويبدو أن مرد هذا الاتفاق والقوة التي وصل إليها أبو طاهر لا يعود إلى الأزمة الداخلية المتمثلة في ضعف الخلافة العباسية ، بل هو إلى الإخفاق في قطع الحج ، وإلى ما لحق بالدولة الفاطمية ونزل بساحتها إثر وفاة المهدي سنة ٣٤٤هـ /٩٣٤م بقيادة : أبي يزيد مخلد بن كياد (٢) وعلى الرغم من هذا الاتفاق نرى أبا طاهر ينقض

(١) The Durze Faith , by Sami N. Mkarem, pp. ١٦□٢٢٠

زكار : المرجع السابق ١/١٥٤.

(٢) الهمداني : (م بن عبد الملك) : تكملة تاريخ الطبري، تحقيق : ألبرت يوسف كنعان، المطبعة الكاثولويكية، بيروت، ١٩٦١م، ص ١٠٢.

- مؤلف مجهول : العيون والحدائق : الجزء الرابع ، القسم الأول ، ص ٣٣٣.
- أخبار القرامطة، ص ٣٦٠- ٣٦١.
- دي خويه : القرامطة، ص ١٠٨- ١١٢.
- الجوزي (بندلي) : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ١/١٤٥.

اتفاقه سنة ٣٢٣هـ /٩٣٥م عندما خرج الناس للحج في هذه السنة، حيث اعترضتهم في ثاني عشر من ذي القعدة ، فقاتله جند الخليفة وأعانهم الحجاج ثم التجؤوا إلى القادسية فخرج جماعة من الناس بالكوفة إلى أبي طاهر فسألوه أن يكف عن الحجاج فكف عنهم وشرط عليهم أن يرجعوا إلى بغداد ، فرجعوا ولم يحج في هذا العام أحد(١).

مما تقدم نجد بأن الهدف دائما وأبداً هو منع الحجيج من تأدية فريضة الحج والهدف مرتبط بمبادئ القرامطة بالإضافة إلى شعور أبي طاهر بأنه مازال يتمتع بالقوة على الرغم من كل المستجدات التي ظهرت في المنطقة ، هذا ولم يمت أبو طاهر القرمطي(٢) سنة ٣٣٢هـ /٩٤٣م إلا وقد فرض على حكومة بغداد وسلطات الشام ومصر الأموال العظيمة التي كانت تحمل إليه في كل سنة اتقاء خطره(٣) ومن الملاحظ أنه بعد أبو طاهر القرمطي لم يرد أي ذكر لاعتراض الحجاج أو قطع طريق الحج من قبل أي أحد من زعماء قرامطة الإحساء و البحرين وذلك يكمن في أن حركة القرامطة أخذت في العقد الأخير من حياة أبي طاهر شكل الدولة ، والدول في العادة تتعامل بالسياسة حسبما تمليه المصالح ، وإنشاء الدولة معناه وصول الثورة إلى غايتها القصوى أو قناعتها بعدم إمكان حصول ذلك الاكتفاء بما تحقق من مكاسب ، وفي هذا انكماش وبداية تراجع وسير في دروب الانهيار ، وهذا ما

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٦٣/٨- ٢٦٤، زكار : الجامع في أخبار القرامطة ٢٢٤/١- ٢٢٥.

(٢) ثابت بن سنان : تاريخ أخبار القرامطة، ص ١٠٤.

(٣) ثابت بن سنان : تاريخ أخبار القرامطة، ص ١٠٤.

حصل بالفعل بالنسبة لقرامطة البحرين . ومما يؤكد ذلك قيامهم بإعادة الحجر الأسود إلى مكة المكرمة عام ٣٣٩هـ / ٩٥٠م بغية استمالة أهل الإسلام ، فحملوا الحجر الأسود وأتوا به الكوفة ، فنصبوه في المسجد الجامع على الأسطوانة السابعة في القبلة مما يلي صحن المسجد حتى يراه الناس ، ثم حملوه إلى مكة شرفها الله تعالى ، وقالوا : أخذناه بأمر ورددناه بأمر . يقصدون أنهم أخذوه بأمر محمد بن عبيد الله المهدي وأعادوه بأمر المنصور بالله أحد الخلفاء الفاطميين .(١)

قال ابن الأثير : وكان بجكم الرائقي قد بذل لهم فيه خمسين ألف دينار ، فلم يردوه وردوه الآن بغير شئ ، وذلك في ذي القعدة من السنة ، فكان مكثه عندهم اثنين وعشرين سنة إلا أياماً.

وحكى ابن الأثير في سبب رده : أن عبد الله المنعوت بالمهدي القائم ببلاد المغرب كتب إلى القرمطي يذكر فعله ويلومه ويلعنه ويقول أخفقت علينا سعينا وأشهرت دولتنا بالكفر والإلحاد بما فعلت ، ومتى لم ترد على أهل مكة ما أخذته وتعيد الحجر الأسود إلى مكانه وتعيد كسوة الكعبة فانا برئ منك في الدنيا والآخرة ، فلما وصل هذا الكتاب أعيد الحجر الأسود إلى مكة شرفها الله تعالى(٢).

من جهة أخرى يلاحظ أن التهديد بإرجاع الحجر الأسود من قبل الخليفة الفاطمي قد تم في حياة أبي الطاهر وإرجاع الحجر فعلياً تم سنة

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣٣٥/٦ ، السنجاري : منائح الكرم ١٩٢/٢.

(٢) المصدر السابق ٢٠٤/٦ ، فهد : إتحاف الورى ٣٧٨/٢.

٣٣٩هـ/٩٥٠م أي بعد موت أبي الطاهر بعدة سنوات . وهنا يتبادر للذهن سؤال هام ؟ هل اقتلع الحجر الأسود أكثر من مرة أم ماذا ؟؟.. من المرجح أن الحجر الأسود لم يقتلع سوى مرة واحدة ، فحسبما ورد في النصوص احتفظ القرامطة بالحجر مدة ٢٢ سنة متواصلة ولم يقم أبي الطاهر بإرجاعه لأنه كان يشعر بأنه بحاجة لفرض وجوده السياسي في المنطقة من أجل تأسيس الدولة والسيطرة على مناطق أوسع بالإضافة إلى سعيه الدائم لتحقيق مبادئ القرامطة وهذا ما لوحظ من خلال مهاجمته الحجيج وقطع طريق الحج أكثر من مرة رغم عقده اتفاق مع الحكومة العباسية بعدم التعرض للحجيج مقابل أتاوة تدفع له . لذلك وكما مر سابقاً فإن الدول عندما تصل مرحلة كبيرة من القوة في إثبات وجودها وتوسعها تميل إلى التعامل بالسياسة والدبلوماسية نوعاً ما وهذا ما حصل بعد موت أبي الطاهر الذي يعتبر المؤسس الفعلي للدولة في الإحساء والبحرين حيث تم إرجاع الحجر بعد موته ولم يرجع في عهده (١).

مما تقدم ومن خلال استقراء النصوص التي تتحدث عن قيام القرامطة بمهاجمة مكة المكرمة واقتلاع الحجر الأسود ومهاجمة الحجيج وقطع طريق الحج يمكن التوصل إلى النتائج التالية :

(١) فهد : إتحاف الورى ٢/٣٨٠، ٣٩٨.

- جاء في مرآة الزمان – مخطوطة أحمد الثالث - ٣١/١١- و : فيها - ٣٣٩هـ- رد الحجر الأسود أي موضعه إلى مكة من البيت بعث به أخو أبي طاهر الجنابي، مع ممم بن سنبر إلى المطيع، وكان بجكم قد دفع فيه خمسين ألف دينار، وما أجابوا، وقالوا : رددناه بأمر من أخذناه بأمره، وقد ذكرناه في سنة سبع عشرة وثلاثمائة، فأقام عندهم اثنتين وعشرين ، فأعطاهم المطيع مالاً، وبعث به إلى مكة، وحج الناس وتمت مناسكهم.

نتائج تلك الغزوات :

١- لقد سبب نشاط القرامطة في شبه الجزيرة اندفاع كميات هائلة من القبائل ، خاصة من قبائل عامر بن صعصعة نحو الشام والعراق ، ومع اتساع عمليات القرامطة أيام أبي طاهر جرى زيادة في الاعتماد على رجالات هذه القبائل عن طريق الإغراء بالغنائم ودفع الأموال ، وأخذ العباسيون يسعون لشراء ولاء بعض زعماء القبائل ، كما أن بعض هؤلاء الزعماء أخذ يفكر بالعامل لصالحه ولمنفعته الخاصة.(١)

٢- اعتداءات القرامطة المتكررة على الحجيج هزت صورة الخلافة العباسية وأظهرتها بمظهر الضعيف العاجز عن حماية الإسلام والمسلمين باعتبارها مسئولة عنهم ، والدليل على ذلك الضرائب التي دفعها الخليفة لأبي طاهر ليكف يده عن مهاجمة الحجيج ،(٢) بل إن أبي طاهر أخذ يتدخل في سياسة حكومة بغداد ويؤثر على سير الأعمال فيها . وهذا لأكبر دليل على ضعف الخلافة آن ذاك .(٣)

٣- إن الاعتداءات التي حصلت سواء من قطع طريق الحج ومهاجمة الحجيج وكهاجمة مكة المكرمة أكيد أثرت على اقتصاد المنطقة في شبه الجزيرة العربية والحجاز ذلك أن فريضة الحج ما هي إلا مناسبة عظيمة وكبيرة للبيع والشراء بالإضافة إلى أن لها أكبر الأثر على طرق

(١) ثابت بن سنان : أخبار القرامطة ص ١٤٦ ، ١٦٠- ١٦١.

(٢) دي خويه : القرامطة، ص ١٠٨ - ١١٢، ثابت بن سنان : المصدر السابق، ص ٣٦٠- ٣٦١.

(٣) الجوزي (بندلي) : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ١٤٥/١.

المواصلات بين بلاد الشام والحجاز مما يؤثر على التجارة المعروفة والمألوفة بين بلاد الشام والحجاز في ذلك الوقت .

٤- أخلت هذه الهجمات بأمن الطرق وخلقت الفوضى وعدم الأمان بين بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية ، مما أثر على وقف عمليات الحج في بعض السنوات أي أنها أوقفت فريضة أساسية من فرائض الإسلام الخمسة.

٥- بخلع الحجر الأسود أخل بأحد مناسك الحج لمدة طويلة من الزمن (٢٢) سنة وهذا إثم لا يغتفر وانتهاك لحرمة الأماكن الإسلامية المقدسة.

في النهاية المشكلة الأساسية في تاريخ القرامطة أنهم اهتموا بأوضاعهم الداخلية ، لكنهم لم يلتفتوا إلى قضية سمعتهم الخارجية ، ونسوا أنهم لئن ملكوا القوة المدمرة لوقت من الأوقات ، فإن من قهروهم وأنزلوا بهم الضربات الموجعة كانوا أكثر منهم عدداً وعدة ، وأمامهم فرص استرداد لقوة ومن ثم التمكن من الانتقام . لقد اهتم القرامطة بالمسائل الاجتماعية والاقتصادية وملكوا الفرصة حتى يتخلصوا من هذا الغطاء وذلك عن طريق العودة إلى الجادة القويمة ، فذلك كان سيفتح أمامهم مختلف الأبواب في جميع البلدان ، لكن على الرغم من كل هذا تمسكوا بالغطاء الواهي ، وسخروا قواتهم في سبيل تدمير ما أجمعت الأمة على الإيمان به والتمسك ، فأهلكوا أنفسهم بأيديهم ، فهذا كان وما يزال مصير كل من يتنكر للتراث ويعلن الحرب عليه .